22

على الطريق إلى النقب

أحيانًا أرافق ساري وعلا وأنيس إلى رام الله، وفي أغلب الاحيان أتجول في شوارع القدس العتيقة. لا أشبع منها أبدًا، أسير بين السائرين، أجاذبهم أطراف الحديث، أضحك معهم، أتسوق، أفعل كما يفعلون... تمامًا. ثمّ أستقل "الفورد" سرفيسي المفضل وأعود للشقة. أسترخي على الشرفة مع فنجان من الشاي أو القهوة وأتأمل في التلال المحيطة، حيث في البعيد هناك... المستوطنات.

قريبًا سأعود مع أنيس، سنرجع إلى فرنسا، مَقَرُّنا الحالي ومنفانا الآخر والأخر... مرة تلو أخرى سنعيد تشكيل لغز حَيَواتنا، قد ينتظرنا رحيل جديد، وربما نُودِع هنا وللأبد ما كان يجب أن يكون حياتنا الحقيقية.

تثير فكرة العودة في داخلي اضطرابًا بل اهتياجًا وتؤرق سكوني، فمازال عليَّ أن أقصد مكانًا ما، مكانًا لم أواجهه بعد، لم ألمسه إلى الحين، ذلك الذي بدأ منه الوجع من زمان، وجع أمي الأول.

ساري وهو مراقب نبيه، لم تفته حالتي. هو الذي طالما منحنا وأرضانا أدرك مشاعري. وفي يوم أخبرنا بلامبالاة كأنه يرمي اقتراحًا عاديًا، بأنه نظّم لنا جولة في الصحراء مع أصدقاء فرنسيين وسيارتهم ذات الدفع الرباعي.

صحراء النقب. ها هو بير السبع يعاود الظهور. لم أنسه، هو مختبئ في قرارة نفسي، في مكان سحيق بداخلي. هناك، حيث ولدت أمي وتركت بيتها، حيث جرحها الأول. هناك، حيث بدأ الرحيل ومعه المنفى، حيث أجبرت مع عائلتها على عبور الصحراء وقد علقت على حزامها حذائها بالكعب العالي. آه، لا لن أعود لقصتي هذه!

ننظم الرحلة وأنا أشعر بالاطمئنان لمرافقة فرنسيين، سيغطي هذا على تنقلاتي ويحميني من الإسرائيليين. غدًا ثانية، عود على بدء إنما هذه المرة مع ابني صلبي واستمراريتي. لا يدور في ذهن أصدقائي الفرنسيين شيئًا من كل هذا، ما يهمهم في هذه النزهة هو تسلق الصخور الحجرية في الصحراء. ليكن! لكل همه وعلى أية حال فإن المناظر غاية في الروعة.

نعم، مناظر النقب مذهلة حقًا. ترافقنا في الرحلة عالمة انثروبولوجي

اسرائيلية هي صديقة لساري. تجمع الأحجار وتمسدها بكل حنان، أسألها لم تفعل هذا تجيبني بأنها تحبها.

تُعلمني فيما بعد بأن أمها ولدت في غزة. هه! يهودية ولدت في غزة! هذا أمر نادر جدًا فاليهود قلائل هناك. تقول لي أيضًا بأنها تقيم الآن في بير السبع مع زوجها اليهودي الأميركي وولديها وبأنها، خلافًا لي، تستطيع العودة لغزة.

كلُّ الفرق هنا...